الحملة على مصر: "مشروع تنويرى"

(قراءة نقدية).. (بقلم فيليب بوردان)(*)

ترجمة: أ.د. صادق نعيمى

عُقِـدت ندوة علمية كبيرة حول: "الحملة الفرنسية على مصر – مشروع تنويرى une enterprise des L umières 1798-1801:L'Expédition d'Egypte" يتميز هذا المؤلَّف باحتوائه على قائمة مراجع عامة وفهرست متميزين يعرضان – بدقة – لحالة البحث التى توصل إليها الدارسون "لحملة مصر" سواء فى فرنسا أم فى الخارج. وثمة ميزة أخرى فى هذا العمل؛ وهى أنه عمل يجمع بين التخصصات البينية حيث تتحاور تخصصات عدة من مؤرخين فرنسيين ومصريين وعلماء مصريات وعلماء موسيقا عرقية وأطباء حول هذه الموضوع – ولذا فإننا نجد فى هذا العمل معالجات لمصادر وموضوعات جديدة أو غير معروفة بشكل كافٍ، من أمثلة ذلك: دفتر ملاحظات الرسام "هنرى" – جوزيف ريدوتيه H.-J. Redouté، والسياق الاجتماعى والثقافى والعثمانى، وأخيراً مقابر الباريسيين الذين شاركوا فى الحملة.

ويعرض "هنرى لورانس" H. Laurenes فى ورقته مدى إعجاب كتّاب القرن الثامن عشر بمصر، رغم أن معرفتهم بها كانت عن طريق مصادر توراتية أو يونانية

(*) الأستاذ بجامعة بليز باسكال B.Pascal (كليرمون – فيران Clermont-Ferrand II 2).

– رومانية تجعلهم يتساءلون عن غموض "اللغة الهيروغليفية"، ذلك الغموض الذى دفع بجامعى التحف لأن يثيروا نوعاً من الهوس بمصر، هوس باطني وظفته "الفرانكوماسونية" LaFranc-Maçonnerie؛ ولكنها استقطبت أيضاً بعض العلماء ليتعرفوا من خلال تاريخها على أصل العقائد والعلوم، وبداية التاريخ الإنسانى وامتد الهوس إلى الفنانين؛ حيث نجدهم يحاكون الفن المصرى فى مسلاته وأهرامه. ونتعرف من خلال هذه الندوة أيضاً على النظام السياسى أيام "على بك" من خلال أعمال "فولنيه" Volney و"سافارى" Savary: فتبين الملابسات السياسية فى هذه الفترة أن الاحتلال الأجنبى بات لا مناص منه، وأن هذا الاحتلال الأوربى هو الذى كان من شأنه أن يعيد التقدم الذى كان يتمتع به هذا البلد فى أوج حضارته القديمة. ونطلع أيضاً على مشاريع سابقة للحملة؛ أى منذ السبعينات من القرن الثامن عشر تدعو للسيطرة على مصر ومن أمثلة هذه المشاريع نرى أن "البارون توت" Tott قد كُلف فى سنة 1776 بعمل جولة استكشافية فى مصر.

ومنذ وزارة "فيرجين" Vergennes – كما يذكرنا "فردريك هتزل" F. Hitzel، اتجهت الدبلوماسية الفرنسية وجهة تركيا وذلك حرصاً على المحافظة على المكتسبات التجارية الفرنسية، وكانت هذه الدبلوماسية تستند فى تحركها تجاه الدولة العثمانية على القناصل والتراجمة. ولقد اقترحت فرنسا تعاوناً ثقافياً وعلمياً من شأنه أن يسرع بخطى التحديث فى الإمبراطورية العثمانية. ونتيجة لجهود هذه الدبلوماسية تم التعاون فى مجال التحصينات وبناء السفن فى الفترة من 1784 حتى 1788، وهى الفترة نفسها التى شهدت دخول عربة اليد إلى تركيا بفضل الخبرة الفرنسية، وهى مفيدة لعدد كبير من الناس فى ذلك الوقت، إلا أن الحرب العثمانية الروسية قد قطعت هذا التعاون؛ بسبب رغبة فرنسا أن تبقى على الحياد. ولقد استؤنف هذا التعاون مرة أخرى فى سنة 1792 ثم من سنة 1794 إلى سنة 1797؛ وذلك بتشجيع من السلطان الجديد "سليم الثالث" (1789–1807) الذى رفض الدور التضليلى الذى كانت روسيا والنمسا تحاولان من خلاله دفع الباب العالى إلى عدم الاعتراف بالجمهورية الفرنسية.

وبعد معاهدة "كامبو – فورميو" Campo-Formio، أبدى "بونابرت" اهتماماً خاصاً بالبلقان؛ ولذا فقد قام عدد من الفرنسيين بإصلاح كثير من المدفعية والأسطول العثمانى بل وتأسيس المدرسة البحرية، كما كان حال الفرنسيين عندما ساهموا فى تطوير المطبعة لتعمل باللغة الوطنية التركية؛ ولذلك فليس بمستغرب أن يوجه الأتراك الشكر للفرنسيين على ذلك. وفى السنة السابقة على الحملة، قام "جيون بامبلون" G. Pampelonne بقيادة وفد من عدة عشرات من الفنانين (سوف يشارك العديد منهم لاحقاً فى الحملة على مصر، ومنهم على سبيل المثال: المهندسان المعماريان "لوبير" Lepère و"بروتان" Protain) بالذهاب إلى إستانبول. والمعروف أن عدد علماء الحملة بلغ مائة وستين "عالماً" ومهندساً قاموا بمرافقة جيش قوامه خمسة وثلاثون ألف رجل من جيش الشرق.

ويتتبع "بورجيه" M.N. Bourguet المراحل الكبرى فى التاريخ العلمى والبحرى للحملة : إن هؤلاء العلماء الذين اتبعوا الجيش فى حملة بحرية ، كانوا يوظفون بذلك "تقليداً" وضع قواعده "فرانسيس بيكون" عن العلم الميدانى (الإمبريقى) الحديث فى الأتلانتيت الجديد، وهذا التقليد كان قد اتبع أيضاً من قبل العلماء الذين رافقوا الجيش الفرنسى إلى هولندا وإيطاليا؛ حيث قام علماء أمثال "توان" Thouin و"فوجاس دى سان – فون" Foujas de Saint- Fond و"مونج وبيرتوليه" Berthollet "باستعارة" واسعة للميراث الطبيعى والثقافى من هذين البلدين. ولذلك كان من الطبيعى، وقد صاحب الحملة على مصر هذا الكم من المتبحرين، أن يؤسس فى القاهرة فى (22 أغسطس 1798) "معهد العلوم والفنون"، وكان هذا التأسيس بعد قليل من وصول الجيش الفرنسى للقاهرة فى ظل طموح يسعى لتأسيس جمهورية الآداب، على أن هذا الحلم سوف يتأثر بالمخاطر التى يتعرض لها الجانب العسكرى للحملة وللمقاومة التى يبديها الأهالى، ومن الظروف المادية (المتعثرة) للاكتشافات وتحليلها؛ مما أدى إلى يأس عدد من العلماء وفقدان حماسهم، وخاصة أن بعضهم كانوا يقومون بمهمات فى الصحراء والدلتا وفى الصعيد، ومع ذلك استطاعوا أن يحققوا تقدماً ما فى مجال الهندسة، وخاصة فيما

يتعلق بالمساحة؛ ومن هنا كان هذا التقدم الملحوظ فى مجال علم الخرائط والجغرافيا وهندسة الرى والعلوم الطبيعية وعلم الآثار.

ومن المشكلات التى كان يقابلها هؤلاء العلماء فى المعهد، مشكلة تخصصهم هم أنفسهم والتى تتمثل فى الغيرة ثم الشجار الذى كان ينشأ بينهم، وخاصة بعد رحيل مونج فى أغسطس 1799، ومن بعده "برتوليه"؛ وبسبب النفوذ المتزايد "لفورييه" Fourrier، ورغم ذلك فإن جلسات المعهد قد وصلت إلى اثنتين وستين جلسة. ولعل سبب الخلافات – على نحو ما يشير "إيف ليسوس" Y.Laissus فى بحثه – هو التعيينات التى حدثت فى المعهد والتى كانت فى مجملها لعلماء مقربين للقادة العسكريين للحملة، وبخاصة "بونابرت"، ونجد أن ثمة خمسة وثلاثين مهندساً كانوا يحظون بتأييد "فورييه" من مجموع اثنين وستين. وبسبب استقلالهم النسبى عن الجيش الغازى، فقد استطاعت هذه المجموعة أن تكون أساس وصف مصر؛ بفضل ما احتوته دفاتر ملاحظاتهم عن رسومات مبدئية عن الآثار القديمة وخاصة فى مجال فن العمارة التى تميزت بها المعابد. تلك الرسومات التى اشتملت على رسم الأبراج السماوية بشكلها الدائرى، وكذلك التفكير فى إنشاء خط ملاحى بين البحرين الأحمر والأبيض المتوسط على نحو ما تظهر دراسة "شارل جلسبى"، أما عمل "كارميليا أوبسومر" C.Opsomer فيظهر الدور الذى لعبه الرسام وعالم الطبيعة "ريدوتيه" Redouté وخاصة من خلال دفتر ملاحظاته المعنون: "لوحة زمنية للجنة العلوم والفنون"، وهى الملاحظات التى لم تنشر حتى الآن.

ونأتى الآن إلى محاولات بعض الباحثين للإجابة عن السؤال الآتى: كيف ينظر معاصرو الحملة إليها؟ أبدى الفلاسفة الأيديولوج (المذهبيون) Idéologues تأييداً لها، وهذا التأييد يرجع إلى تأثير كتابات "فولنيه" التى تصور مصر بلداً ذا حضارة عريقة ، كثير السكان، ولو أنهم يعيشون فى حالة مزرية؛ ولذا فإن استعماراً تحضيرياً يعد عملاً إيجابياً، وهو على العكس من استعمار أمريكا. ونقرأ رؤية المذهبين الأيديولوجين تلك فى مجلة "العقد الفلسفى" وخاصة فى كتابات "لوبريتون" Le Breton الذى قدم وصفاً عرقياً (اثنياً) وسياسياً لمصر، أو فى الوصف الجغرافى الذى

يقدمه "ج.ب. سيه" J.B.Say ظناً منه أن هذا يمكن أن يساعد العائلات التى لها أبناء مشاركون فى الحملة . ومن مفهوم الاستعمار التحضيرى، اعتبر المذهبيون أن الفرنسيين مطالبون بأن يساعدوا شعوب الشرق وأن يندمجوا فيهم لتوحيد أوربا وآسيا؛ ولذا فإن عمل "بونابرت" فى تحطيم سلطة المماليك الذين يستعبدون بها شعب هذا البلد، قد لاقت هوى لدى هؤلاء المذهبيين؛ ولذا فقد امتلأت كتابات مجلات ذلك الوقت بالإطراء على عمليات "بونابرت" وعلى جهد لجنة العلوم وخاصة "العقد الفلسفى" على نحو ما نفهم من عمل "فردريك ريجن" F. Régent . إن رؤية المذهبيين تلك من "إعادة بعث" مصر هى ضمن "فلسفة الأنوار" التى لخصها "كوندورسيه" Condorcet حول إمكانية مساندة استعمار تنويرى وتحضيرى فى كتابه: **"مجمل للوحة تاريخية عن تقدم العقل الإنسانى" Esquisse d'un tableau des progréss de l'Esprit humain**. وفى هذا الإطار يمكننا أن نضع سياسة "بونابرت" فى هذا البلد وإنشاءه للدواوين وكلمات الإطراء على ما قدمته الحضارة العربية فى عهد الخلفاء لخدمة العلم والتى كانت تقال فى حضرة أعيان أهل مصر، وكذلك المشاركة الفرنسية الطنانة فى احتفالات المصريين بأعيادهم الدينية أو الوطنية؛ ومنها أيضاً الاحتفالات الصاخبة بأعياد الثورة الفرنسية والتى كانت تقدم للمصريين على أنها رمز للتحالف بين الشعبين. بيد أنه تجب الإشارة إلى أن هذه العروض الضخمة علمية كانت أم تقنية التى كان الفرنسيون يقدمونها للأعيان من أبناء هذا البلد كانت فى الأصل مخططات استراتيجية تهدف إلى إقناعهم بقبول الوجود الفرنسى"، وهو ما نخلص به من بحث السيدة "ماريا لويزا أورتيجا" L.Ortega.

غير أن أفكار "فلسفة الأنوار" لم تحظ دائماً بنجاح كبير: إن الحيرة أمام تجارب الكيمائيين وفشل طيران المنطاد، لم تساعد على توطيد أقدام الفرنسيين، كما كانت سلطة "الديوان" -المكون من تسعة من كبار الشيوخ – محدودة، فلم تكن للديوان أية سلطة سوى تقديم النصيحة أو المشورة وضمان مشروعية قرارات المحتل وليس أكثر من ذلك، وكان ثمة غياب لإصلاح إدارى حقيقى، وكانت إدارة البلاد تسير

حسبما اقتضت الآلة العسكرية. ولم تكن هذه العوامل فقط هى التى أدت إلى فشل نشر الأنوار فى هذا البلد المحتل، ولكن كان هناك أيضاً عدم تفاهم وحذر بين الشعب والفرنسيين، زاد منه وحشية المحتل ودقته الزائدة؛ ومن ثم فإن الصفوة فى المجتمع المصرى، رغم اهتمامها بالمكتبة والمطبعة فى المعهد، فإن أحداً منهم لم يُدع للاستفادة منهما، وهذا راجع للثقافة المحلية السائدة التى تقصر التعليم على القرآن الذى ترى فيه هذه الصفوة سمواً يفوق تقدم الفرنسيين . ونذكر أيضاً أن المجتمع المصرى كان يرى فى الفرنسيين خلفاء للصليبيين؛ ولذا فهم أقذار ومدنسون، ولذلك كان "الجبرتى" يندب ويرثى ما آلت إليه الأمور من عدم احتشام ومن تدهور الأخلاق فى القاهرة. ويخلص "أندريه ريمون" A. Raymond بأن قليلاً هم الذين تشربوا روح الأنوار، ويذكر منهم المعلم يعقوب والشيخ "حسن العطار".

ولايجعلنا هذا التأثير المحدود للدور التنويرى للحملة، ننسى أن ثمة نتائج علمية للحملة استفادت منها أوربا فى المقام الأول. ومن أمثلة ذلك أن علم المصريات – كما يذكر "جان ليلكلان" J.Leclant – لم يعد مقتصراً على هواية جمع التحف الأثرية، ولكنه صار موضع اهتمام الكثيرين من غيرهم.. ومن بين علماء الحملة، يخصص "باتريس بريه" P. Bret- دراسته للضابط والفيزيائى "كوتيل" Coutelle صديق العلماء ("فوركروا" Fourcroy و"جيتون دى مورفو" Guyton de Morveau و"كونتيه" Conté). ولقد اشترك "كوتيل" مع "كونتيه" فى تأسيس مركز المنطاد فى ميدون، وأدار الاثنان أيضاً ورش القاهرة (تلك التى كانت مكلفة بعمل طواحين الهواء والتلجراف البصرى والملايات والأسلحة البيضاء ... إلخ)، ثم كلف "كوتيل" بعد ذلك – وقد صار عقيداً – بمراقبة اتفاقية العريش. وبعد أن أصابه الإحباط بسبب عدم انتخابه عضواً فى المعهد، كرس وقتاً لكتابة بحثين أحدهما عن سلة الأقصر التى توقع لها أن تنقل إلى باريس، أما البحث الآخر فكان عن فن بناء أهرامات الجيزة، وقد كلفه "مينو" بذلك مما مكن "كوتيل" من توظيف فريق عمل ضخم من أجل ذلك، ويعد هذا بمثابة عمل مبكر فى مجال التنقيب عن الآثار؛ وبفضل هذا الفريق لم يعد يكتفى الرسامون أمثال: "ديترتر" Dutertre

و"ريدوتيه" Redouté و"كونتيه" Conté و"دينون" Denon، وكذلك المهندسون - بما جاء من رسومات فى كتب رحالة أمثال: "بوكوك" Pocoke (1734-1741) و"نوردن" Norden و"نيبور" Nébuhr (1772) وأخيراً رحلة "كاساس" Cassas فى السنة الرابعة لقيام الجمهورية الفرنسية. وكان فريق العمل هذا يعمل فى الصباح المبكر وقبيل الغروب ليفادى أشعة الشمس الحارقة. ولقد كان أحدهم وهو "كونتيه" يستلهم رسومات من أجزاء اللوحات فى "موسوعة" "ديدرو" Diderot و"دالمبير"D'Alembert وكان ديترتر يسير على النهج الكلاسيكى فى رسوماته للطبيعة؛ من خلال تصوير نباتات محلية مستخدماً ألواناً مختلفة من الحبر الصينى المخفف واللون المركز وقلم الترقيم، وبالإضافة لهذه الرسومات المحاكية للطبيعة، كان يصور أيضاً أبناء البلد المحتل، وهو التصوير الذى سوف يكون نموذجاً للرساميين المستشرقيين فى القرن التاسع عشر. ولقد بقى لنا رسومات عن الأهرامات وأبى الهول رغم الصعوبات التى تواجه رسم العمارة الضخمة، وتنتهى "مادلين بيفو - سورنيسن" M.Pinant-Sorensen إلى أن محاولات الرسامين استكمال ما اندثر أو تكسر من الآثار التى بقيت كالاطلال - بوحى من التخيل- لم تكن مثمرة بشكل كاف، أما دراسة "عايدة حسنى" فإنها تركز على دور المتخيل فى مسرحية النشاط الإنسانى (اللوحة المرسومة للأثر)، وكيف كان هذا المتخيل يفضل الشخوص الثانوية.

ويعرض لنا "كلود ترونيكر" C. Trauncker العلاقة بين "الرؤية الطوباوية" وبين "الحقيقة الأثرية" لمصر القديمة كما جاء فى "وصف مصر" . إن نصوص هذا الكتاب لجديرة حقاً بآداب "طوباوى" وخاصة تلك النصوص التى كتبها "فوريه" لأنها تعكس صورة مثالية وانسجامية للدولة المصرية القديمة التى كان يسوسها أمراء وعسكريون مستنيرون، وتعكس هذه النصوص أيضاً صورة للدين المصرى الذى يشهد عليه معابده؛ حيث كانت للآلهة سلطة واسعة تعلم الناس مبادئ الأخلاق، وكانت هذه السلطة كافية لاستتباب النظام العام، كما كان هناك إعلام للفضائل العائلية فى عهد الفراعنة.

وتقوم "مارتين ريد" M. Reid بدراسة كتاب رحلة إلى الدلتا والصعيد Voyage dans la Basse et la Haute Égypte المنشور سنة 1820، حيث تظهر كلمة السيدة "ريد" أن هذا الكتاب قد اقتبس من أعمال رحالة سبقوه أمثال: "فولنيه ونوردن"، وكانت الآثار والفنون موضع الاهتمام الأول "لدينون"، الذى تعمد – فى الوقت نفسه – أن يقلل شأن الواقع الاجتماعى وعمران المدن وقت الحملة؛ ولذا فإننا نجد نظرة سوداوية عميقة تملأ نفسه، نلاحظها من خلال وصفه الذى يفتقد التناسق وذلك بسبب الظروف العسكرية، وإننا لنجد كذلك سطوراً تفيض بها هذه الرحلة عن افتراضات مسبقة عن الطبيعة والسعادة والألوهية (*)Déisme. أما "لوسى رو" L. Rault فتخصص بحثها لتاريخ الموسيقا عندما تتناول طرفاً من إبداع المغنى "فيوتو" Villoteau، مركزة على رؤية هذا المغنى للموسيقا العرقية، تلك الرؤية التى تمكنه من اكتشاف وإدراك هوية ثقافية يحاول أن يلفت أنظار الموسيقيين المصريين إليها.

ويجدر بنا أن نشير إلى أنه من الصعب بمكان أن نلم هنا بالثراء الذى يتميز به هذا المؤلَّف (بفتح اللام) عن حملة مثيرة للفضولية مثل الحملة الفرنسية، ولكن هذا لا يمنعنا أن نذكر أن ثمة تكرار وعدم انسجامية بين بعض الأبحاث المقدمة، ولكن هذا التكرار وغياب التناسق أمران من الصعب تفاديهما فى أعمال الندوات. وسوف يكون ضرورياً لكل من تتصدى لهذا الموضوع وأقصد به تحديداً: قافلة العلماء التى رافقت الحملة أن يتصدى لموضوعات منها النتائج الطبية للحملة، ودراسة أعمال علماء أمثال: "جيوفروا سانتى – إيلير" G. Saint-Hilaire و"دليل" Délile، وأخيراً "روزيير" Rozière ، وكذلك دراسة الخرائط التى رسمت أثناء وجود الحملة فى مصر، والمجموعات الأثرية المصرية القديمة الأولى، وتحليل حجر رشيد. ولقد

(*) انتشر هذا المصطلح فى القرن الثامن عشر، وهو يعنى الإيمان بوجود إله لهذا الكون ونكران الوحى أى عدم الاعتراف بالأنبياء، وكان فولتير أشهر المعتقدين فى هذه الفكرة، ولقد اعتبر أن ذلك مدعاة لفكر التسامح الدينى، لأن الوحى السماوى يتضمن لاهوتاً يحيط به الغموض أو لا عقلانية أجزاء منه تؤدى إلى إثارة الخلافات الدينية بين البشر التى هى أساس التعصب الذى أودى بحياة كثير من البشر (المترجم).

استمر تأثير كل ذلك تأثيراً أدبيا على العقل الفرنسى حتى ظهور رواية "العالمة" l'Alméh التى كتبها "فينى" Vigny.

وتشير المساهمات المختلفة فى أعمال هذه الندوة أن الحملة تندرج – بصفة عامة – ضمن مشروع "فلسفة الأنوار"، دون أن نرى طرحاً لتساؤل: حول ما إذا كانت بعثة العلماء المصاحبة للحملة بمثابة تمويه للمشروع العسكرى وإعطاء مصداقية للمستعمرة المفقودة أم لا؟

* * *

obeikan.com